من صميم الريف

الجزاء

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

عبد العزيز بن الحاج أحمد فتى طوى العشرين من سني عمره فيه قوة الشباب ، ومرح الطفولة ، ودلال الغنى ، ونشوة السلطة ، لا تشغله مشاغل الحياة ، ولا تثقله حاجات العيش ، فأبوه شيخ فيه الغنى والجاه ، وفيه الشفقة والحنان ؛ فهو لا يقسو على أولاده فيبعث فى نفوسهم المقت ، ولا يقتر عليهم فينفث فى قلوبهم البغض ... وهو حين رأى ابنه الأكبر — عبد العزيز — يحبو نحو الشباب رويداً رويداً جذبه من المدرسة ليسيطر على عمله ، وليلقى بين يديه قياد أمره ؛ ثم هو ما يبرح يسدى إليه النصيحة فى لين ، ويلقى عليه الدرس فى رفق ؛ وأراد الرجل أن يلقى فى روع ابنه أنه رجل فانطلق يحدثه حديث الزواج فاطمأن الفتى إلى حديث أبيه وفى نفسه اللذة ، وفى قلبه النشوة ؛ ثم انطلق من لدنه وعلى شفتيه ابتسامة ...

وبدا الفتى مرحاً طروباً ، فزينب — الزوجة المنتظرة — ابنة خاله فيها الجمال والحياء ، وفيها العقل والهدوء ؛ ثم هو يتمشق الزواج ليبدو فى أعين الناس رجلاً فيه الرجولة ؛ وأخوها زميله فى المدرسة ، ورفيقه فى الحقل ، وتربه فى اللعب ؛ شبّا معا صديقين ، وهاهى ذى آصرة إلى آصرة ، فطار إليه يبشره ثم انطلقا معاً إلى الحقول كعصفورين استشعرا جمال الطبيعة فى يوم صاف من أيام الربيع فراحا يدفان بجناحين فيهما النشاط والسعادة

وجاءت الزوجة الصالحة تشعر الفتى السعادة وتسعد هي إلى جانبه ، وأغمض الدهر جفنيه عنهما فرشفا معاً — على حين غفلة منه — كأساً من السعادة صافية ما يكدرها خصام ولا يشوبها جفاء وتصرمت السنون وهوبها حفّ ...

* * *

وخرج عبد العزيز عند الأصيل — كما يفعل بين الحين والحين — إلى شاطىء الغدير ، برفقة صديق حبيب إلى نفسه ، توثقت بينهما عروة الصداقة منذ زمان على رغم ما بينهما من تفاوت فعبد العزيز من علية القوم ومحمود من أواسط الناس ؛ غير أن شيئاً فى حياتيهما جمع بينهما فأنس كل منهما برفيقه واطمأن إليه ... خرجا معاً يستروحان نسمات الربيع ويمتعان النظر برؤية فتيات القرية وهن يملأن جرارهن وفيهن الجمال يرف رفيفاً حلواً ما زوقته المدنية ولا شوهته الأصباغ ، يبتسمن فى خفر ويتحدثن فى استحياء . وهيج الشاطىء والفتيات فى نفس عبد العزيز ذكرى غرام مسحت عليه يد الأيام فراح يقص على صاحبه قصته . وانطلقا والحديث ذو شجون ، وراع عبد العزيز أن يرى على خطوات

منهما فتاة ليست هى ممن يعرف من بنات القرية ولا هى من طرازهن ، فهى طفلة حسناء جميلة المعارف ساحرة العينين ، ترتدى ثياب الريف فى تأنق ، وتعمل عمل الريفيات فى حذر ، كأنها لم تدرج في القرية ولم تشب بين سمائها وأرضها ؛ فتعلق بصره بها مايطرف ولا يتحول . ثم اندفع يسأل صديقه : « تُرى من تكون هذه الفتاة الفتّانة ؟ » قال محمود : « أفلا تعرفها ؟ إنها سعدية بنت حسنين الفلاح » وعجب الفتى أن تكون هذه الحسناء ابنة فلاح جلف قذر وهى كأنها زهرة يانعة تفتح عنها كِمّها منذ ساعة تتأنق فى ثياب ذات ألوان جذّابة يسترها قميص أسود رقيق شفاف خشية أن تذهب طعمة للألسن ومضغة فى الأفواه . ومَنْ مِن الفلاحات تستطيع أن تبدو أمام الأعين فى غير ثوبها الأسود الصفيق ؟ وعجب الفتى مرة أخرى أن يبدو وجهها فى صفائه وبهائه لم تلوحه الشمس فتطفئ بعض جماله ، وأن يرى يديها فى رونقهما ونعومتهما لم يلوثهما البرسيم ، وأن يرف ثوبها فى نظافة ونظام لم يعصف به الغيط . فقال لصديقه : « أفيكون ذلك حقاً ؟ » قال محمود « نعم » قال « فما بالها على ما أرى من حسن وأنَق وبهاء ورونق ؟ » قال محمود : « لا جرم إنها قد قضت عمراً من عمرها عند خالتها فى القاهرة لاترى الريف إلا قليلاً قليلاً ؛ وحين مات زوج خالتها وكان موظفاً بالحكومة ارتدت الخالة وابنة أختها ليعيشا فى ظلال الأهل هنا ... هنا فى القرية » قال عبد العزيز : « ياعجباً ! ياعجباً ! » ثم انطلقا ... وابتسم الفتى أن وجد فى نفسه شيئاً يجذبه إلى الفتاة ظنه بعض هوج الشباب

واختلف الفتى إلى الناحية التى رأى فيها الفتاة يدفعه قلبه ، فهو يسعى إليها فى صحبة صديقه محمود مرة ، ووحده مرات ، يمتع نظره وقلبه معاً برؤية صاحبته ثم ... توثقت العروة وانكشف الحجاب فراح يتحدث إليها أو يجلس على خطوات منها أو يقدم إليها هدية صغيرة ؛ والفتاة تستشف نوازع قلبه فتدفعه عن نفسها فى دلال وتجذبه إليها فى رضا . وتلاقيا — مرة — على حين غفلة من الرقباء فاندفع يقول لها وتقول له ... وحال حالها ... لقد كان هذا الهوى فى عينى الفتاة لهواً وفى عينى الفتى عبثاً ، فاستحال — بعد حين — فى قلبيهما حباً جامحاً وعشقاً عاصفاً ؛ والفتى ما يستطيع أن يجلس إلى فتاته فى خلوة ، والفتاة لاتستطيع أن تجد السبيل إلى فتاها . وأنى تخلص إليه وهى فى قيد من أبيها وهو فظ غليظ الكبد ، وقيد من أهلها وهم حواليها يترصدونها ، وقيد من دارها وهى فى قلب القرية ؟ فثار الحب ثورة لايجد لها متنفّساً

* * *

وأظلمت الدنيا فى عيني عبد العزيز حين أحس بقلبه يدفعه إلى فتاته فى شدة وعنف وهو يعلم أن لاسبيل إليها وهو زوج ، وتوزّعته الخواطر السود فبدا كاسف البال حزيناً مهموماً ، وانطفأ إشراق وجهه واستلبه العشق من مرحه ومحمود من ورائه يسرى عنه ويخفف من آلامه وينزع عنه أشجانه

ليت الفتى ضم جوانحه على لهيب من الأسى يتأجج فما أرسله حماً تتلظى به الزوجة المسكينة ! لقد تراءى له أن زوجته هي العقبة الكؤود التى تحول بينه وبين أمله ، فلبس لها لباس الشر ، فما يرمقها إلا شزراً ، وفى عبوس ، وما يحدثها إلا

الحديث الجاف الخشن ، ولا يطمئن إليها إلا ريثما ينفلت من لدنها ... واضطربت هي أن ترى زوجها وحبيبها ينطوي على هم في نفسه لا يحدثها حديثه وهو كان ينشر على عينيها حديث حياته كلها ... لقد أعرض عنها على غير ذنب ، وعافها دون جناية فجزّت في نفسها آلام ما تستطيع أن تبوح بشيء منها

وهفت نحوه — ذات مرة — تداعبه وترفه عنه فردّها في غلظة ، وجلست إليه — أخرى — تريد أن تحدثه فدفعها في جفاء ، وتقدمت أيام والفتاة تضيق بما ترى من زوجها ... ثم نادت شجاعتها فلبتها فقالت : أي عبد العزيز ! لقد مرت الأيام ، وأنا أراك في كمد وحزن وما أجد الجرأة على أن أسألك سر أمرك ، وفي نفسي أنها سحابة ما تلبث أن تتقشع فما بالك ؟ » قال في فتور : « لا شيء ! » قالت : « ولكني أراك تغيرت فأصبحت رجلا غير الذي أعرف . أفأستطيع أن أسري عنك بعض ما أهمك ؟ » فصمت وفي نفسه خواطر تتناوحه وهو ما يقوى على أن يحدثها حديث قلبه فيعصف بصُبابة من السعادة في قلبها تكاد تنضب ؛ ولكنها استمرت تقول: «وأنا الآن إلى جانبك أشعر كأني غريبة عنك» قال في هدوء : « وماذا أحسست مني ؟ » قالت : « أحس منك الجفاء والكراهية ، ولشد ما يؤلمني أن أراك تطمئن إلى العزلة ، وتسكن إلى الوحدة ، وعليك أثر الحزن والأسى؛ ولقد عرفت فيك المرح الطروب ... » قال : « هذا بَتّي لا أبوح به » قالت « وأنا ... ؟ » قال « إنه لا ... » واعتقل لسانه فما استطاع حديثاً واضطربت في خاطرها هي فكرة

لقد ألقى الفتى في قلب زوجته بالوساوس تقرضه فهي ما تستقر وما تهدأ . ماذا عسى أن يكون الأمر ؟ إن المرأة لتضطرب للخاطرة تطيف بخيالها فيعصف بها الشك ، وهي لا تأمن قلب زوجها الشاب . أحقاً أن يغلق قلب الشاب دون النساء جميعاً سوى زوجته ، وهو ما يزال يضطرم حياة ونشاطاً يهفو نحو الجمال ويندفع في أثر المتعة ؟ لعله ... لعله ... ووقفت الكلمات على شفتيها

وجلست زينب إلى خادم عجوز تنفض أمامها أمرها ، وتشكو بثها وحزنها ، وابتسمت العجوز في أسى ، وهي تقول : « لا ضير ! سآتيك بالخبر اليقين ! » وراحت العجوز تتقصص الفتى عن بعد وفي خفية ، وترسل ابنتها في أثره فانكشف أمامها الأمر كله ... ثم انقلبت إلى الزوجة تنذرها الهاوية التي توشك أن تتردى فيها

وأعجز الفتاة أن ترد الزوج إليها بعد إذ أعرض ونأى فانطلقت إلى دار أبيها ... انطلقت المسكينة إلى دار أبيها هرباً من نار متسعرة عاشت فيها شهوراً فسحت على مرحها وشبابها في وقت معاً

وتجاذب الفتى أمران وقد هجرته زوجته : حبه لفتاته ، وحنانه إلى زوجته التي صحبها السنين الطوال فما أحس منها أذى ولا استشعر ضيقاً ؛ غير أن شيطان الحب هَبّ من مرقده يوسوس ، فأسلس وانقاد ... ثم انطلق إلى فتاته ...

* * *

وأغلظ الأب على ابنه واشتد ، ثم انطلق إلى زوجة ابنه يصلحها فما أبى الأب وما تموقت الزوجة ؛ غير أن حياتهما اضطربت فأصبحت جحيما يتسعر ألماً وضيقاً وأسى ، فانطلقت — مرة أخرى — إلى

دار أبيها وفيها بُضعة منه ، لا تخضع لأمر أبيها ولا تلين لرجاء أمها ؛ ثم ... ثم وجدت فى ابنها سلوة وعزاء

* * *

وطرب الفتى لما كان فانطلق إلى صديقه محمود يحدثه حديث أمانيه فراح هذا يحذره غِبّ أمره ، ولكن أنى له أن يلق إليه السمع والفتاة تفتح له ذراعيها كل مساء وتلقاه فى ابتسامة حلوة آسرة ، وتسقيه من رحيق السعادة كأساً مترعة ؛ ومن ورائها أمها تغريه بأمر ؛ والأب يرى ويسمع ؛ غير أن طمعه فى مال عبد العزيز ومال أبيه ينشر على عينيه حجاباً كثيفاً ؛ وهو رجل غفل يهتز طرباً أن يتراءى له أن ابنته ستصبح فى يوم ما ... فيصبح هو ... والحاج أحمد يبلغ إليه بعض خبر ابنه فما يرى فيه سوى نزوة من نزوات الشباب الطائش ما تبرح أن تنطفىء أو تثوب ، وهو لا يستطيع أن يحدثه الحديث ضناً على هيبته أن ينفرط عقدها من قلب ابنه ... وانطوت الشهور سراعاً ... والفتى يطمئن إلى الفتاة ويسكن إلى حديث أمها

والتاث عقل الفتى واختلط عليه الأمر ، وعلى حين غفلة من أهله أصبح زوج سعدية

ماذا يستطيع الشيخ أن يفعل وقد انفلت الزمام من يده ؟ إن قلبه لا يطاوعه على أن يقذف بابنه فى منأى عنه ، فحرم على زوجته الجديدة أن تلج داره . لاضير ، فالفتى يسكنها داراً أخرى ، وهى تخفف عنه بعض ما يصيبه وتداوى داءه فى حذق ومهارة . واطمأن الفتى إلى زوجته الجديدة وقد أسدل على الأولى ستار النسيان فعاشت فى دار أبيها زوجة بلا زوج ، تتناوحها الآلام ، وتلتهمها الغيرة ، فتجد فى ابنها ، وهو يدرج بازائها ، سلوة وعزاء

ومرت الأيام وسعدية تحاول جهدها أن تجذب الفتى إليها فتصرفه عن زوجته الأولى فيستغنى عنها فيقطع ما بينه وبينها ، وهى لا تستطيع أن تصارحه ببغيتها خيفة أن تثير فيه كوامن الذكرى ، ثم هى ما تنفك قلقة مضطربة خشية أن تجد النصيحة إلى قلبه الطريق فينبذها وينطوى عنها ؛ وعبد العزيز ما يزال — رغم هذا — ابن أبيه يقوم على أمره فى غير فتور ولا كسل

وهفت نفس الفتى إلى ابنه — والناس يحملون إليه خبره — فراح يطلبه فى إلحاح يداعبه ويلاعبه ، ثم يحبوه ببعض الحلوى واللعب ، وينفحه بالقروش و ... كأنه يكفر عن بعض ما استزله الشيطان عنه ، ووجد الطفل فى أبيه العطف والحنان فانطلق فى أثره

وجلس الطفل إلى أمه — ذات مرة — وقد وجد فقد أبيه ، فهو لم يره منذ أيام ... جلس إليها يستحثها أن تحمله إليه ، وهى تهدئ من إلحاحه وتبعث فيه الأمل ، ثم هى تدفعه عنها فى رفق ... وذهب صبر الطفل فانطلق فى شوق ينتظر أباه لدى المنعطف ؛ وانتظر فطال به الانتظار ... ومر صبي بإزاء الطفل ومن ورائه رفيق له يشتد فى أثره ويرشقه بالحصى ، وطاشت واحدة فسقطت على رأس الطفل وهو آمن فى ناحية من الطريق فصرخ : « يا أبى ... يا أبى ! » أيدرك الطفل معنى الصرخة التى أرسلها مدوية حين آلمته الحياة وصدمته الحصاة ؟ لقد انشق لها قلب الأب وهو يسير الهوينى فى طريقه كأن القدر ساقه ليلبى نداء ابنه فيخفف عنه بعض ما أصابه ، فحمله بين يديه وانطلق به إلى داره ...

واختلف الطفل إلى دار أبيه ثم راح يستوضح

أمه خبر المرأة التي يراها في دار أبيه تخبّرته أنها هي أخته ... اختلف الطفل إلى هناك وسعدية تلقاه — في حضرة أبيه — في بشاشة وسرور وتداعبه في لطف ؛ ثم هي — في غيبته — تخلط شدة بلين وتمزج قسوة برفق ؛ والابن لا يشعر بما ينزى في قلب زوجة أبيه من كراهيـة له ومقت ، والأب — في غفلته — يخيل إليه أن المرأة ترى في ابنه هو ابنها هي أيضاً لأنه بعض حبيبها ، فهو يراها تعطف عليه وتحبوه بالحلوى واللعب ، وفي نفسها هي أمر ...

وحزّ في نفس المرأة أن ترى الطفل يجذب إليه والده فيصرفه عنها حيناً من الدهر ، وخافت أن يبذر في قلب أبيه غراس أمر ، فراحت تغلظ عليه قليلاً قليلاً كي تزعجه عن الدار ؛ والطفـل لا يستشعر فيما يجد أذى ولا غضاضة . وعلى حين فجأة دخل عبد العزيز والطفل بين يدي سعدية ينتفض من الذعر ويصرخ : « يا أبي ... يا أبي » وهي تهم أن تلطمه ، وعلى خده أثر لطمة ، فذهل عن نفسه ووقف مكانه مسلوباً لا يستطيع شيئاً : ماذا أرى ؟ أحقاً أنها تقسو على ابني ؟ وانفلت الطفل من بين يدي المرأة ليلاقي بنفسه بين أحضان أبيه ؛ وانفجر الأب — في غيظ — عن كلمات لذّاعة قاسية يلوم زوجته ويؤنبها ؛ وأحست المرأة كأن الـكلمات تتساقط عليهـا رجوماً رجوماً تسحق كبرياءها وتعصف بكرامتها ، فاندفعت تكيل له الألفاظ الجافية الغليظة . وشق على الزوج أن يرى الزوجة وأبوها أبوها تتسامى إليه وهو هو ؛ فتهدم عليه بألفاظ اللوم والتبكيت ، فقال : « أيتها الحمقاء ... ! » فقاطعته : « صه ، أيها المهور ... ! » وسقطت الكلمة المرذولة عليه صاعقة تستلبه من عقله وهدوئه وتنفث فيه ثورة التهور والجنون ، فنطق — والغضب يعصف به — بالكلمة المحرمة ، ثم ارتد وابنه بين يديه يضمه إليه ويقبله بين عينيه ، ويلمس فيه السلوة والعزاء ؛ ومن ورائه المرأة المطلقة وقد جن جنونها حين تهدمت حياتها وتحطمت آمالها ، فراحت تصرخ في سعر : « أفقلتها ؟ أفقلتها أيها الأحمق ، أيها ال ... ! »

كامل محمود حبيب

رفائيـــــل
لشاعر الحب والجمال لامرتين
مترجمة بقـــلم
أحمد حسن الزيات
تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثمن ١٢ قرشاً

كتابان جديدان
الموجز في المحادثات
هما خير كتابين يعلمانك الفرنسية بنفسك
يباعان بجميع المكاتب وثمن كل منهما مجلداً ٦